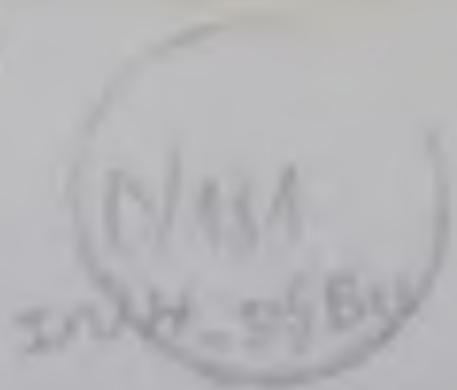


٢٠١٣٩٦٩



# المدرسة التاريخية الجزائرية

بحوث المدقق الوطني الأول

حول المدرسة التاريخية الجزائرية



إتحاد المؤرخين الجزائريين

أحمد توفيق المدنى

معلم من معالمر المدرسية التاريخية الجزائرية

---

مدنى بشير

أستاذ لمعهد التاريخ

جامعة الجزائر

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## التمهيد :

سعيد أنا بمشاركتي في أول كتاب ومؤلف يصدره اتحاد المؤرخين الجزائريين الفتى، سعيد أنا أيضا حينما طلب مني المشاركة في هذا الملتقى الكريم الذي اختير له موضوع يتعلق بالمدرسة الوطنية التاريخية وهو من أهم المواضيع المطروحة على الساحة حاليا، وقد بحثت عن شخصية وطنية ساهمت في إثراء هذه المدرسة فجاءني زخم كبير من الأساتذة والدكتاترة الذين يعود لهم الفضل في مستوانا هذا، وقد تفضل زملائي الأساتذة بذكر ثلاثة من أساتذتنا الكرام وحسب اعتقادي أن ذلك هو أضعف الإيمان، ورأيت من واجبي أن أطرق إلى شخصية كتب عنها الكثير وكتب هي أيضا الكثير، إنها شخصية - أحمد توفيق المدنى - شخصية مثلت بحق جزءا هاما من هذه المدرسة الفتية، منذ العقد الثاني من هذا القرن، فهي شخصية معروفة بعلمها وورعها وشغفها - فلا تكاد تسمع بمشروع علمي أو أدبي أو سياسى أنسى أو أخذ في تأسيسه في البلاد - وفي أي ناحية كانت منها - إلا وترى لـ توفيق الـ يـد العـاملـة الـ بنـاءـةـ فيه مشاركا في تكوينه وتسويته بكل ما يملك من رأي وتدبير أو عمل وتسخير (١)، وإنني في هذا المقام أعتذر للتعريف بهذا المعلم أكثر وإلا فاده به.

## حياته:

### ١- مولده وطفولته:

أحمد توفيق المدنى تونسي المولد والنشأة جزائري الأصل، فقد ولد يوم 24 جمادى الثانية عام 1317 هـ الموافق لـ ١ نوفمبر عام 1899 بإحدى الديار العربية بنهج الناعورة رقم ٤ وهو طريق يفصل بين نهج الباشا ونهج التريبونال "TRIBUNAL" بتونس العاصمة.

كانت مدرسته الأولى أمه عائشة التي اجتهدت في تعليمها قصار سور القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية التي كانت تسمعها من أبيها فتحفظها بأسانيدها<sup>(٢)</sup>، ويقول أحمد توفيق المدنى رحمة الله وطيب ثراه "... وما كان حديثها معنٍ إلا عن الحرام وهو كل خبيث من القول أو العمل، والحلال هو العمل الصالح الطيب، والجنة التي يرثها عباد الله المتقون، وجهنم التي هي مستقر أبدي للشيطان والذين اتبعوه بسوء، وعن الفضائل التي يتمتع بها الكرام من الرجال وعن طباع السوء التي تردي صاحبها وتهوي به إلى دركات ال�لاك.

\* حين بلوغه سن الخامسة إلتحق بالمدرسة القرانية والتي أنشأتها جماعة من فضلاء تونس وأسندوا إدارتها للشيخ الفاضل محمد المصيغir .

- الكتاب... وفيها تعلم أشياء كثيرة غير القرآن الكريم. .... يحكى أحمد توفيق المدنى قصة الصبي - العمرى - الذى عاقبه المؤدب بالفلسفة لكونه لم يحفظ ما طلب منه فكان عقابه أكبر من صنيعه، عندها تدخل - أحمد - وقبض المؤدب من رقبته وقال له : «هذا حرام إن والده أتاك به لتعلمك وتزدبه لا لقتله وتنكل به..... وهكذا تلقيت أول درس عملي في حياتي وهو أن الثورة العاتية في سبيل الحق ضد الظلم والطغيان تقضي على بطش الظالمين<sup>(٣)</sup> .

وكان الفقيد رحمة الله مولع بالقراءة خاصة منها القراءة الصحفية ذلك أنه في سن التاسعة كان يقرأ جل الصحف التونسية من أشهرها الرشدية- المرشد - التقدم - أحمد توفيق المدنى

المثير - الإتحاد الإسلامي وغيرها، وما يلفت الانتباه هو نبوغه حيث لم يكمل دراسته سنة 15 سنة حتى أصبح مشاركا في تحرير جريدة الفاروق عام 1914، وقبل هذا كان قد دخل المدرسة الخلدونية بالزيتونة المعهود من عام 1913 إلى عام 1915.

## أصوله:

### أصله من أبيه:

يدعى والد أحمد توفيق المدني ، محمد بن أحمد بن محمد المدني مولدا، القبي الغرناطي من السادة الأشراف ، وقد ولد محمد - الوالد- بالحضرة الجزائرية خلال عام 1852 وتلقى علومه بالجامع الكبير مع بقية من كبار علماء الجزائر، أما جده أحمد بن محمد فقد كان أمين الأمانة أي شيخ بلدية العاصمة الجزائرية .

### أصله من أمه :

تدعى والدته عائشة ابنة عمر بويراز، وهذا الأخير أبي عمر بويراز ابن المجاهد الكبير مصطفى بويراز التركي الذي كان قائد فريق الفرسان الجزائريين في معركة أسطوالي الشهيرة، وتعارفا الجدان للأب أحمد وللأم عمر أثناء ثورتي المقراني والحداد أثناء توجههما إلى تونس وشاركا واستنتما في هذه الثورة أيما استماتة . وهكذا نرى أن أحمد توفيق المدني سليل عائلتين كريمتين من كرام المهاجرين المجاهدين الجزائريين.

### شبابه:

يذكر أحمد توفيق المدني أنه كان سابقا لسنّه وعمره، ففي كلامه عن صباه يقول في كتابه . «*حياة كفاح*»:<sup>(4)</sup> «وهل كنت حقا صبيا ؟ إبني لفي شك من ذلك مریب ! ... لم أكن ألعب مع الأطفال وأنا أسمع من وراء أبواب المنزل لغطهم وصرارخهم ...»

فقد كان يجمع إليه الكثير من أصدقائه يأتون إلى بيته كل يوم جمعة ويتكلمون هناك كلام الكبار خاصة حول ما يجري في العالم، ثم يتم الانفصال بإحراق الراية الفرنسية.

ويذكر لاحمد توفيق المدنى أنه عاش أحدى عشرة جدًا منها الانقلاب العثماني ضد السلطان عبد الحميد عام 1909 وأحداث الزلاج<sup>(5)</sup> عام 1911، وكذا بداية الحرب العالمية الأولى عام 1914، وبالموازاة مع هذا كان أحمد توفيق المدنى كثير النشاط في المجال الفكري الثقافى فقد كان مشاركا في تحرير جريدة الفاروق منذ عام 1914 وكتب فيها عدة مقالات تحدث فيها عن المرأة والنساء، لكن أهمها كان المقال الرابع عنوان "كيف ننقد وطننا" في 27 أوت 1914 وهو لم يبلغ بعد سن 15، وفي المقال تحدث المدنى عن أسباب تعasse الشعب التونسي وربطها بثلاثة أسباب، أولها تركنا ديننا، وثانية مخالفتنا لعاداتنا، وثالثهما أنها خربتنا لغة آبائنا وأجدادنا لغة ديننا الإسلامي، ويقترح من أجل ذلك أربعة حلول، أولها تعليم البنات، وثانية تعليم اللغة العربية ونشرها وثالثها إحياء العلوم ونشرها ورابعها ترك الكسل والإقبال على تعلم الصناعات مهما كانت، ويتسائل بحزن: «بالله ما ضرنا لو كان فينا مهندسون؟ ما ضرنا لو كان فينا كيميائيون من جنسنا؟»<sup>(6)</sup>

خلال الحرب العالمية الأولى يتصل أحمد توفيق المدنى بأربعة مناضلين تونسيين وهم أحمد نجاح محمد النمير ، محمد السعيد الخصي ، الهادي مراح لكي ينظم تنظيمًا ثوريا ضد فرنسا التجبرة وبعد اجتماعات متعددة وضع خطة مبنية على سبعة مبادئ وهي (بث دعاية ضد التجبرة ، التغلب على موجة اليأس، الاتصال بقبائل بني زيدان من الجنوب - مهاجمة الحامية الفرنسية بقفصة والحامة - الاتصال بالطلبة الجزائريين بالزيتونة ، تحريك الطاقات بالغرب العربي ، إنشاء شفرة خاصة للاتصال بين المناضلين)، وكان المدنى كثير الاتصال بالجنوب خاصة قفصة والحامة بحجة المتاجرة في التعمير والحقيقة أنه كان يهوى لتنظيم ثوري من خلال هذه الاتصالات خاصة بالشيخ علي فارس من قبائل بني زيد .

#### سجنه :

لكن نشاط المدنى يكتشف من بعض الخونة وعلى رأسهم "البشير بوخريص" وهو جاسوس يعمل لصالح فرنسا يوم 14/02/1915 جاءه وأخبره أن سيدا يريد مقابلته أحمد توفيق المدنى

وعند خروجه إلى بجمع من الشرطة على رأسهم محافظ الشرطة السياسي الكوميسار (كلابي) الذي فتش بيته ثم أستنطقه لكي يحول إلى القضاء العسكري لسجنه، لكن لم يحول وسجن هناك لمدة أربع سنوات تقريباً خرج على إثرها في

1918/11/01 تزامناً مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وما يجب ذكره أن المدني استفاد بشكل كبير من هذا السجن فهو يقول :<sup>(7)</sup> «إنتي لم أكن مظلوماً حينما رأي بي في السجن، فلم يُعتد عليه وإنما هو الذي اعتدى على الإستعمار البغيض - كما أنتي أحسنت استعمال سنوات السجن فقد تعلمت المطالعة والدراسة ونهلت من علوم الدين والعربية، وعلوم الحياة، وكذا تعلمي للفرنسية - كما أنتي كنت على اطلاع تام بما يحدث في العالم وأنا داخل السجن، كما أن للسجن فضل صحي على فمن رأني اليوم <sup>(8)</sup> وأنا في الخامسة والسبعين أمرح وأحمد الله بين أحضان الصحة والسلامة وأرتع في حدائق البهجة والانشراح لا يخطر بي باله إطلاقاً أنتي تجاوزت الستين كما أن السجن مهد لي مكاناً مموداً بين قومي ومركزًا ممتاز في العالم الإسلامي ...»

وهكذا نرى أحمد توفيق المدني قد بدأ نضاله في تونس الشقيقة دفاعاً عنها حيث لم يكن يؤمن بالأوطان والحدود في العالم الإسلامي وقد كلفه ذلك السجن منذ طفولته وشبابه ذلك أنه اعتقل وسنة يصل 14 و3 أشهر و3 أيام .

## نفيه إلى وطنه الجزائر :

بعد النشاط الفكري الكبير الذي قام به أحمد توفيق المدني إثر خروجه من السجن وهو نشاط تعيز بمعاجهة فرنسا خاصة، فقد بدأ في التأليف من خلال أول كتاب له عام 1922 وهو «تقويم المنصور»، كما نشط المدني من أجل إنشاء لجنة الخلافة الإسلامية ومقرها إسطنبول بعد سقوط الدولة العثمانية وكانت له اتصالات كبرى في هذا المجال ومراسلات مع الخليفة علي عبد المجيد، كما حاول رفقة مجموعة من المناضلين تونسيين زين العابدين السوسي - عثمان الكعاك - الطاهر صفر - محمد بن حسين - إنشاء المجمع العلمي التونسي في ماي 1924 لكنه لم يتمكن من ذلك، وساهم بشكل فاعل في شهر رمضان المعظم عام 1342هـ (1924) في إنشاء الرابطة القلمية .

وكانت المدنى أنشطة مسرحية من خلال (فرقة السعادة) التي ترأسها ، أما الإدراة فكانت للممثل الكبير عبد الجليل الازناوط، ومن أشهر رواياتها طارق بن زياد التي منعت، وكذا نكبة الاندلس من هنا بدأ إزعاج المدنى للسلطات الفرنسية يظهر بشكل واضح وما زاد في ترسير هذا الطرح مقاله عن ثورة عبد الكريم الخطابي الذي نشره في جريدة (إفريقيا) يفضح فيه السياسة الاستعمارية الفرنسية ويجد ثورة الريف، وهي النقطة التي أفضت الكانس. هكذا قامت السلطات الفرنسية من خلال ممثليها لوسيان بتوقيع قرار النفي في الساعة الثانية زوالاً عن يوم السبت 5 جوان 1925 جاء البشير بخرصة مرة أخرى إلى بيت أحمد توفيق المدنى، وطلب منه الحضور إلى مركز الشرطة للاقاء السيد كمبانا ، ويقول المدنى الذي أبلغني بأمر النفي - تنفيذاً لأمر ملكي صدر منذ القرن 17 المتعلق بنفي رعایا المشرق العربي - وهكذا استدعي الأخ الأصغر<sup>(9)</sup> للمدنى وهو حسن الذي علم بالنفي وكان سعيداً بذلك حيث قال<sup>(10)</sup>: «نعم النفي إلى بلد الآباء والأجداد بلد التضحية والجهاد» وبعد أن افترض قسطاً من المال - 1000 ف - بوصول استلام من كمبانا سيعود المدنى إلى سيارة نفته أول مرة لبلد أجداده وكان نزوله يعنيه ثم قسنطينة، ودخل معتركاً آخر من الحياة في بلده الأصلي وهو لم يتجاوز بعد 25 سنة، فقد احتضنه وطنه أيمماً احتضنان، احتضنته الجزائر فكان ذهراً لها كما كان لتونس كذلك ، ولما علم التونسيون بنفيه ثارت ثائرتهم. إن نشاط المدنى في بلده كان كبيراً ولا يتسع المقام لذكره لكنني أكتفي بالقول أنه واصل الكتابة والتاليف وشارك في الحياة الثورية والسياسية لاحقاً، فقد كان من المساهمين في تأسيس جمعية العلماء عام 1913، وقبلها نادي الترقى عام 1927 كما أصبح أميناً عاماً للجمعية عام 1914، وعلى إثر مؤتمر الصومام عُين عضواً للهيئة السياسية بالخارج وممثلاً لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة كما شغل منصب وزير الثقافة بالحكومة المؤقتة منذ 1958، وفي عام 1961 أصبح وزيراً مفوضاً بالجامعة العربية، وفي 6 أوت 1962 عين وزيراً للأوقاف وكان له دور أساسي في فتح معاهد التعليم الأصلي لأول مرة بالجزائر، هاته المعاهد التي كونت الكثير من الإطارات الوطنية المخلصة للدين والوطن وقد تمكن من فتح 17 معهداً إسلامياً.<sup>(11)</sup>

أحمد توفيق المدنى

وقد تقلد المدنى مناصب أخرى سامية ببلده ففي سنة 1966 عين سفيراً باليمن، وفي سنة 1967 انتُخب عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ما بين عامي 1967-1970، وكان سفيراً بالعراق وتركيا والباكستان عام 1971، ومن هنا اكتسب تجربة دبلوماسية كبيرة.

## وفاته:

أن بلوغه مرحلة السبعينات عاد إلى الوطن حيث عين مستشاراً موزخاً للمركز الوطني للدراسات التاريخية (CNEH) وكان مشرفاً على القسم العثماني ويقي به إلى أن وافته المنية ثم الثلاثاء 18 أكتوبر 1983 عن عمر يقارب 84 سنة . قضى منها حوالي 58 سنة بوطنه الجزائر يبذل ما يبذل من عطاء علمي وتاريخي خاصّة فما ترك لنا هذا الرجل لا تستطيع الأقلام أن تذكره ولا تستطيع من هذه المداخلة المتواضعة أن أنسقه، ولكني أكتفي بشهادات غيري حوله.

## شهادات حول هذه الشخصية الفذة :

يعتبر أحمد توفيق المدنى من أوائل المؤرخين الجزائريين، وهو من القلائل الذين عرّفوا بالتاريخ الجزائري داخلياً وخارجياً، وقد شهد له بذلك الكثير، ذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

### 1- الشيخ عبد الرحمن الجيلالي:

بعد حوالي ستة أشهر من وفاته كتب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في إحدى المجالات<sup>(12)</sup> تحت عنوان<sup>(13)</sup> "مزية الاستاذ أحمد توفيق المدنى على تاريخ شمال إفريقيا" وإن شهادة هذا الرجل موثوق بها علمياً وتاريخياً بل الأكثر من هذا أنه عاشره أزيد من نصف قرن، وما يذكره الشيخ عبد الرحمن الجيلالي "... حينما ضاق صدر حكومة الاستعمار الفرنسي في تونس بالاستاذ النابغة أحمد توفيق المدنى ... صنعت على أخذ مسلك الإبعاد من تونس إلى الجزائر ولم تدر - أو تكن تدر - أن موطن آبائه وأجداده كان ينتظره، فحل بها مكرماً ومعظماً عام (1925) ... وكان المدرسة التاريخية الجزائرية

رحمه الله في حركة دائمة لا يفتر ولا يكل ولا يمل فكلما كان هناك مجال فسيح يرى لنفسه فيه فسحة للعمل الصالح العامل، فيفدي ويستفيد إلا ويبادر مسرعا إلى المشاركة في ذلك المجال ... هاذا عسى لي أن أحصي أو أعد مواقفه المشرفة في هذا الميدان؟ فهذه مجتمعات وجمعيات وهذه نواد ونحوها وهذه مشاريع ومؤسسات، وهذه مسامرات ومحاضرات وهذه منظمات ... وكان فيما خبأ له القدر من النعم ليمتاز بها بين أقرانه الباحثين ول يكن له القدم الأولى أن أهمه الله إلى القيام بوضع تاليف انفرد به فيه وحده بين جميع من سبقة من العلماء الباحثين حملة القلم العربي، وهو كتاب تاريخ المغرب قبل الإسلام ونعني به قرطاجنة في أربعة عصور - أو تاريخ شمال إفريقيا من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي - المطبوع في تونس عام 1927 ... فكتاب قرطاجنة جاء بأسلوب وائع وأعمق، فهو دراسة معمقة وتحليل وتعليق لقضايا الشمال الإفريقي فيما قبل الإسلام وبحث استقصائي شاذ في تاريخ جميع الشعوب والأمم والدول التي تعاقبت على هذا الوطن عرقياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً وعسكرياً ومدنياً، وحرباً وسلاماً... هكذا كان كتابه هذا ... فهو المرجع الوحيد في بايه والمصدر الأصيل في فنه الذي انطلق منه جميع كتب العرب ومن خاص منهم في هذا الموضوع وإليه عادوا و قالوا إن المؤلف رحمه الله قام بتاليفه لهذا الكتاب بأداء مهمة تاريخية خالدة خدم بها أمته ووطنه العزيز خدمة لم يسبق إليها أحد قبله... ولم يقف الجيلالي في ذكره لهذه الشخصية الفذة عند هذا الحد بل ذكر أيضاً ... وهناك صنيع آخر حاز به قصب السبق أيضاً، وذلك صنيعه فيه أخرجه للناس من دراسة مفصلة لفرع آخر من فروع العلم والمعرفة وهو فرع حساس يتصل بأعمق مشاعر سكان المغرب الأوسط منهم بالخصوص - الجزائر - ذلك هو كتاب جغرافية القطر الجزائري المطبوع بالجزائر عام 1948 . فقد أفاد به النسا الجزائرى بالمدرسة العربية أيضاً إفاده وحتى خارج المدرسة العربية... فلولا المدى ما عرف الزمان ولا عرفوا وضعية بلادهم جغرافياً ولا سياسياً ولا طبيعياً ولا اقتصادياً فيفضل المدى عرف طلب المدارس العربية وغيرهم كل ذلك فكان لهم في هذا المضمار - رحمه الله - القدم السايدة والمرية الظاهرة ...

هكذا نرى شهادة أحد أهم المؤرخين المعاصررين اتجاه شخصية المدنى رحمة الله، فهو يعترف له من خلال كتابي تاريخ المغرب قبل الإسلام، وجغرافية القطر الجزائري أنه رائد المدرسة التاريخية خاصة حينما يذكر الكتابان الأولان اللذان وضعها في هذا المجال وهو ما يزيد في تأكيددور الإيجابي لهذا الرجل في المدرسة الوطنية التاريخية.

### 3- شهادة الدكتورة أنيسة بركات - درار - المجاهدة :

تطرق الأستاذة الفاضلة بمناسبة وفاة الشيخ توفيق المدنى، وفي كلمة تأبينية «... يشرفني أن أساهم مع الباحثين بهذه الكلمة، نرفعها بقلوب خاشعة ترحماً على أبيتنا الروحى وأستاننا المجل الشيخ توفيق المدنى الذى جمعنا وإياه منذ عشر سنوات درب البحث العلمي فسار معنا جنباً لجنب في المركز الوطنى للدراسات التاريخية ولم ينحر إلا أمام القضاة المحترم إنا لله وإننا إليه راجعون ، إنه أحد أبناء الجزائر البررة الذين كرسوا حياتهم من أجل عزة وكرامة وطنهم. كان رحمة الله عالماً لا يُشق له غبار وشخصية فذة جديرة بالاحترام والتقديم كلامه حكمة وعلمه جهاد . إكتسب بجهده وكفاحه وعنائه المتواصل بدون هوادة علمًا واسعًا وثقافة رفيعة وضرب بسهم صائب في الجهاد الصحفى والفكري ... ويعُد من البحاثة البارزین الذين قاموا على أكتافهم النهضة التاريخية في بلادنا خلال فترة خطيرة، وكان أول وزير للتربية والتعليم، إنه أديب وكاتب ممتاز وخطيب مصيق له مؤلفات قيمة في التاريخ والجغرافية وله مقالات شديدة مناهضة للاستعمار ولفائدة العلوم والمعرفة ...»<sup>(14)</sup>

2- <sup>(15)</sup>شهادة مبارك بن محمد الميلى - رحمة الله - هي <sup>(16)</sup> رسالة يبعث بها الميلى إلى المدنى يتحدث فيها عن المساعدة التي يمكن أن يقدمها المدنى للميلى حيث يقول «... أخي العزيز نابعة العصر وفخر القطر وغوث الوطن سيدى أحمد توفيق المدنى السلام عليكم ورحمة الله ... لقد كان سروري برسالتكم عظيمًا لا من حيث صدق الوعد المنبيث في جميع حروفها فقط بل من حيث هناؤك أيضًا وتفرغك للأعمال المنتجة فقد استشعرت أنكم في سعة وقت وهذا بال، ومتلك من نود له بكل قلوبنا راحة من المدرسة التاريخية الجزائرية

الشواغل، لا الكسل - أعاذك الله - بل للعمل الصالح العائد ... ويشير المداركي في نفس الرسالة إلى حاجته إلى ترجمة وتوجيهه، يساعد له فيها أحمد توفيق المدني في كتابة "تاريخ الجزائر القديم والحديث" وهو من أهم وأشهر الكتب التاريخية.

إن شهادة الميلبي الإيجابية تبين بحق مدى عظمة هذا الرجل ومكانته في التاريخ الوطني .

#### 4- شهادة الدكتور جيلالي صاري :

أشار الاستاذ إلى أهمية "كتاب الجزائر" الشهير، وقال في مقدمته كلامه<sup>(17)</sup> ، لا بد من إبراز الأهمية العلمية والوثائقية وحتى البيداغوجية بالخصوص لإنقاذ فقيد الجزائر والعروبة والإسلام - الشيخ توفيق المدني - وهي تلك الشخصية الفذة الفريدة من نوعها خلال هذا القرن والتي جندت كل قواها وإيمانها منذ مطلع هذا القرن وهو مقينا بالقطر التونسي الشقيق...، وبعدهما أشار الاستاذ إلى أهمية كتاب الجزائر كونه وثيقة ثمينة حول وضعية الجزائر، وكذا أهميته البيداغوجية، ذهب إلى الإشارة إلى إيجابية هذا الكتاب على المعلمين والأساتذة والشعب الجزائري مستشهدًا بكلام الشيخ أحمد توفيق المدني حيث يذكر: «... أرأيت الشجرة الكبيرة وقد دخلت أغصانها وتناثرت أوراقها من شدة الظمة وأشتاقت قطرة الماء، التي هي أملها الوحيد في الحياة وهي الواقية لها من الموت، تلك هي أمة الجزائر وذلك هو اشتياقهم للتعليم...» وهو كلام مأخوذ من كتاب "الجزائر" للمدني - 282 - وفي الأخير يشير الاستاذ: «... لا زال نداء المؤلف يرن في أذاننا ولا زال في بسمات الكتاب تلك البسمات المتفائلة التي عُرف بها إلى آخر حياته المليئة بالكافح وحب المعرفة والعلم ... رحم الله هذه الشخصية الفذة».

وغير هؤلاء هناك شهادات كثيرة من الداخل والخارج للذين عايشوه كأن سعد الله<sup>(18)</sup> أو فكري طوبنا، إن المجال لا يتسع في الحقيقة للتحدث عن كل ذلك، كما يجب أن أشير إلى دور الأدباء الذين ذكرروا في أشعارهم شعارات تبين مدى عظمة هذا الرجل من ذلك:

أحمد توفيق المدني

١- عبد الكريم العفون الذي يقول:

كفاحك أَحْمَدْ يطوي السنين!  
لقد ذدت عنِّي العدى ثابتًا  
وكافحت يابطلا خالداً  
فأُمْعِنْت في المجد تبغي الخلود

فسل عنه يا ليث، هذا العرين  
أمام الأعاصير والظالمين  
عن العرب تحمي حماهم أمين  
كإنجاد العرب الخالدين

٢- أحمد سحنون يقول فيه : <sup>(20)</sup>

يا جمال الـ مـ سـ اـ نـ رـ وـ جـ لـ لـ المـ اـ تـ رـ  
وـ جـ دـ يـ رـ بـ آـ نـ تـ كـ وـ نـ إـ مـ اـ مـ الجـ زـ اـ نـ  
سـ وـ فـ تـ غـ لـ وـ بـ خـ بـ رـ سـ عـ يـ  
خـ دـ يـ نـ بـ رـ الجـ زـ اـ نـ  
سـ وـ فـ يـ أـ يـ صـ بـ اـ حـ بـ اـ  
بـ دـ هـ دـ يـ الدـ يـ اـ جـ اـ رـ  
صـ ظـ نـ اـ بـ اـ نـ تـ صـ اـ رـ هـ اـ  
مـ عـ لـ اـ اـ لـ بـ شـ سـ اـ نـ رـ  
شـ غـ فـ تـ بـ الـ مـ فـ اـ خـ رـ  
وـ اـ حـ سـ اـ سـ شـ اـ عـ رـ

أنت ( توفيق) أمة  
لك إلهام فيلسوف

٣- أبو القاسم سعد الله يقول - قصة عملاق

4- مقدى زكريا يقول فيه:

شاكرا الفضل ليس يعدم شakra  
خلدوها إذن لأحمد ذكرى  
في كتاب جزائر اليوم سطراً  
واكتبوها وليقرأ الجيل منها  
والضحايا رمز الضحايا الأبرا  
وانكروا اليوم وهو عيد الضحايا  
والثلاثين قد قضاهما نضالاً  
عامرات بالجد أن تنشروها  
والتقاويم<sup>(21)</sup> والبحصائر والنادي<sup>(22)</sup>  
خالدات على الزمان بواق  
كمثاني تقفيس نوراً وطهراً  
وعثمان<sup>(23)</sup> والكتاب الأغر<sup>(24)</sup>

هذه مقتطفات بسيطة إنتقيتها لشاعر، عظام مجُدوا هذا الرجل العظيم وهو أقل شيء يقدم لرجل وهب نفسه وحياته لدينه ووطنه مدة 70 سنة تقريباً<sup>(25)</sup> ، فهو بحق علّاق كما لقبه أستاذنا الفاضل الكبير أبو القاسم سعد الله - أطال الله عمره وأعاده سالماً - علّاق بمعاونته، علّاق بدوره، علّاق خاصة بإنناجه وكتاباته التي كانت يحّقّ نوّة للدرس الوطنية التاريخية.

## إنتاجه ومؤلفاته :

عادة ما يرتبط اسم هاته الشخصية الفذة بإنجازها الوفير خاصية في مجال الجهاد والنضال ضد الاستعمار الغشيم، فبفضل النظر عن مواقفه الشجاعية ضد الاستعمار والتي كلفته السجون والمعتقلات، كانت كتاباته هي الأخرى من الأسباب الرئيسية المؤدية لسجنه ونفيه، ذلك أن كتاباته عديدة كما قلت وغزيرة ومتعددة النواحي فهو لا يكتفي بالكتابات الحزبية السياسية<sup>(26)</sup>، أو الكتابات الصحفية فوق أعمدة المجلات والصحف أو بالخطابة المستمرة في النوادي وشعب الحزب، بل انتقل إلى باب التأليف والنشر لاحقاً.

إن بداية المدنى كانت في المجال الصحفى منذ 1914 وعمره حوالي 5 أستة حيث كان مشاركاً في تحرير جريدة<sup>(27)</sup> الفاروق بتونس، ثم نشر أول مقال له بمساعدة زميله التونسي زين العابدين السنوسى صاحب المطبعة، تحت عنوان "رسالة تونس" إزاء جمعية الأمم وضعه دفاعاً عن تونس في حقها بالانتقام إلى المجتمع الدولى، وقد اختطفتها الأيدى فى مدة وجيزة، كما كتب مقالاً آخر في شكل رسالة بعنوان الحرية ثمرة الجهاد، تاريخ كفاح إرلندا . وحدث ما حدث "رسالة تونس" من اختطاف وشراء فأعاد نشرها في (مجلة الفجر). بعد هذا ينتقل المدنى إلى التأليف بصفة هادفة ومنتالية ومن هنا بدأ نجمه يلمع في تونس أولاً لكي ينتقل لاحقاً إلى وطنه الجزائر، وأول ما كتب كان "تقويم المنصور" سنة 1922 وعمره لا يتجاوز 23 سنة وبه 320 صفحة، وقد قسمه إلى 13باباً وبه 34 صورة (باب القسم الفلكي - باب المباحث العلمية - باب بساتين العلوم - مرآة العالم - باقة من رياض الأدب - العالم الإسلامي - أشهر الحوادث وأعظم الرجال - العالم الاقتصادي - القسم السياسي - عرائض الأفكار - العملة والمكاييل والمقاييس - مطبوعات السنة - في عالمي المشرق والمغرب) ذلك هو كتاب "تقويم المنصور" الذي يعتبر من أرقى ما جاءت به فريحة الإنسان آنذاك وهو ما يفسر فقدانه من السوق في وقت وجيز وهو ما حفز المدنى على المواصلة في هذه الطريق، فقد أنتزع آخر ب بنفس العنوان عام 1923 وأخر عام 1924 وأخر عام

1925، وأصبح الكتاب في خمسة أجزاء، وكل جزء، أكثر تطوراً من الآخر، فالجزء الثاني مثلاً به 63 صورة وبه ترجمة أسد بن فرات فاتح صقلية... إلخ.

وقد كتب المدنى الأجزاء الثلاثة الأولى بتونس أما الرابع والخامس فكانا بالجزائر وهو بحق كتاب موسوعة دام 8 سنوات في الصدور (1922-1930)، بالتوالى مع ذلك يصدر كتاب «قرطاجنة في أربعة عصور» أو «تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام»، وقد طبعه في تونس عام 1927 بعد نقشه ويعتبر هذا مؤلفاً فريداً<sup>(28)</sup> من نوعه لم يسبق إليه أحد.

بعد ذلك بحوالي أربع سنوات أي سنة 1931 يأتي كتاب «الجزائر» فهو كما يقول عنه المدنى نفسه «أنه كان فتحاً مبيناً نزع عن الشعب كل الشعب غشاوة الجهل المطبق»<sup>(29)</sup> فهو بحق كتاب فريد من نوعه هو الآخر ذلك أنه شمل وعرف لأول مرة بجغرافية المنطقة وتاريخها ومجتمعها، وهو الآخر تحد لفرنسا في ذاكرتها المعنية لاحتلال بلادنا، وخير ما أختتم به تعريفه لهذا الكتاب قوله: «فتقبله مني أيها الشاب المسلم الجزائري عملاً خالصاً لا أريد عليه جزاء ولا شكوراً... - وإنني أنصح القارئ الكريم بقراءة تلك الخاتمة المشوقة التي وضعها في كتاب الجزائر»<sup>(30)</sup>.

مررت الجزائر بمرحلة تغيرات كبيرة ظهرت جمعية علماء عام 1913 - وبروز اليسار لفرنسا عام 1935، والمؤتمر الإسلامي عام 1936 وحزب الشعب عام 1937، والمدنى يتتابع كل ذلك لكي يخرج لنا بكتاب مهم سنة 1938 تحت عنوان «محمد عثمان باشا داي الجزائر» وقد يتساءل البعض عن هذا الكتاب الذي جاء ليبين أمرين أساسين:

أولهما: أن المدنى كان بين ما يقع في الجزائر في عهد هذا الداي من عمل مُشرف ومشرف، وبين ما يحدث في أوروبا وأمريكا من اضطرابات وفوضى.

ثانيهما: أن الكاتب وضع مقدمة مخطولة فند فيها الأكاذيب الأوروبية حول دور الأنراك بالجزائر بطريقة علمية وموثقة ومن جملة ما يذكر مثلاً: «إن حالة التعليم في الجزائر خلال ذلك العهد كانت أرقى وأوسع مما هي عليه بعد مائة سنة من الاحتلال فرنسا وأن الأممية عندنا أقل مما هي عليه سنة 1937...».

أحمد توفيق المدنى

هذا الكتاب كذب فيه إذن كل الادعاءات الفرنسيّة التي أرادت تشويه الحكم العثماني بالجزائر وما تزال أصوات نسمتها إلى اليوم تصيب في هذا المنحني للأسف.

يتوقف المدّني فقرة عن الكتابة لظروف موضوعية (الحرب العالمية الثانية) لكي يعود إليها مرة أخرى عام 1946 من خلال كتابه "المسلمون في جزيرة الصقلية وجنوب إيطاليا" وهو كتاب مقارنة بين صقلية قبل الإسلام وصقلية آن الإسلام، كيف كانت مظلمة في العهد الأول وكيف أشرقت في العهد الثاني بالعمان والتسامح وكيف شيدوا في مدينة باري إمارة مزدهرة، والكتاب في تسعه أقسام خص في القسم الأخير بالعلوم والأداب وتحدث عن 34 علمًا من أعلامها مثل محمد بن علي المازري وأسد بن فرات وغيرهما كأبي عبد الله محمد الإدريسي الحسني الطالبي، وأبن حمديس الصقلي.

ووضع الشيخ توفيق المدّني على ذمة المؤرخين والمكتبات العلمية مؤلفات أخرى كـ"جغرافية القطر الجزائري" سنوات 1948/1952/1964 وكتاب "هذه هي الجزائر" عام 1957، وـ"حنبل" مسرحية تاريخية عام 1950، وكتاب "حرب الثلاثاء" سنة 1957 (1492-1792) ضد الإسبان في طبعتين الأولى 1968 والثانية عام 1975، ومذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، ومؤلفات أخرى يزيد عددها عن 20 مؤلفاً، هذا دون الإشارة إلى كتاباته الأخرى المتعددة والتي لا يتسع المجال لذكرها.

وفي الحقيقة قد لا نجد مفاضلة بين مؤلفات هذا الرجل الفذ وإذا ما تھتم ذلك فإن مؤلفه الشهير "مذكرات حياة كفاح" في أجزاء ثلاثة هو أهمها حسب اعتقادي، فالجزء الأول يشمل حياته في تونس منذ 1905 إلى 1925 وبه 351 صفحة تقريباً والثاني يشمل حياته بوطنه الجزائر من عام 1925 إلى 1954 وبه 435 صفحة حين اندلعت الثورة المباركة والجزء الثالث مع ركب الثورة التحريرية وبه حوالي 600 صفحة، وحسب اعتقادي أن هناك جزءاً رابعاً.

إن "مذكرات حياة كفاح" يُعتبر من أهم ما كتب من الكتابات التاريخية وإنني أعتقد أن المؤذخ أو الدارس للتاريخ لا بد له أن يمتلك هذا المؤلف<sup>(32)</sup> خاصة ذاك الذي يتعلق بدراسة تاريخ شمال إفريقيا وبالخصوص تونس والجزائر وإن كتاب "تقويم المنصور" هو بحق تحفة من التحف التاريخية النادرة، ولا أقول التاريخية فحسب وإنما السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كذلك، كذلك الشأن بالنسبة لكتاب "الجزائر" وكتاب "محمد عثمان باشا داي الجزائر" وحرب الثلثمائة سنة 1492 - 1792.

إن القائمة لا تنتهي إذا ما عدناها وذكرناها فهي طويلة جداً تبين بحق أن الشيخ أحمد توفيق المدنى أفنى حياته من أجل التاريخ لوطنه ومن مجل عزته وقد انطبق عليه القول المأثور "في حياة كل أمة رجال وهبوا أنفسهن للعلم والفكر فاقتروا حياتهم في سبيل ذلك" ذلك هو أحمد توفيق المدنى، ذلك العلم من أعلام العروبة والإسلام والوطنية الصادقة فمن مَا لا يعرفه؟ إنه الرجل المتواضع البسيط الورع، فرغم مكانته تراه يصرح ببساطة: «إنني وإن كنت قد هيأت للثورة منذ أمد بعيد، لم أكن قائدًا من قادتها ولا بطلًا من بطلاتها، بل كنت خادمًا لها مطيناً لأوامرها منذ اليوم الأول ...» كعاشر إلى نقاء سريرته بصرامة فهو يقول: «إنني طيلة أيام كفاحي في سبيل الحرية والاستقلال وخاصة أيام حربنا التحريرية الكبرى، لم أشتراك أصلًا، أبداً في أي دسينة أو مؤامرة تحاك من قبل فرد أو جماعة ضد فرد أو جماعة آخر». هذا هو أحمد توفيق المدنى الرجل العالم الباحث الذي ينزل مستواه إلى دون كيف لا وهو الذي أخذ البلاغة عن الشيخ محمد بن يوسف، والتفسير عن الشيخ النحلي، والفقه عن الشيخ الصادق النسفي وال نحو والصرف عن الشيخ محمد بن القاضي وعلمه الشيخ محمد بن شعبان المنطق والفلسفة والشيخ معاوية التميمي أداب اللغة العربية، لقد كان يدرس وهو طالب عشر ساعات في اليوم، وعليهلاحظ تجميع عوامل عديدة ساعدت على نبوغ هذه الشخصية مثل "البيئة التي نشأ فيها، وال فكرة الإسلامية الصحيحة التي اعتمدها منذ صغره، كما أن الظروف الدولية الكبرى التي عاشها أعطته تجربة قوية، يضاف إلى هذا مولده ونشأته خارج وطنه زاده حباً لوطنه وحبنا له.

أحمد توفيق المدنى

## الخاتمة :

أيها المسادة الكرام، أيها القارئ الكريم، هذا جزءٌ قليلٌ من حياة هذا الرجل العظيم الذي وهب نفسه لدينه ووطنه العربي الإسلامي، وإنني مصوّر على القول أنه جزءٌ قليلٌ لا غير ذلك أن نضاله 70 سنةً يستحال حصره فيما بين هذه المخطوط فـقد قضى الرجل عمره في الجهاد والنضال منها إحدى عشر سنة بتونس -من 1914 إلى 1925- تاريخ نفيه، ومنذ هذا التاريخ والرجل يصول ويتجول بكل ما أتي من علم ومعرفة فقد ألف الكثير من الكتب وغيرها والتي ما تزال تُعتمد اليوم من المصادر الهامة الرئيسية المعتمدة كـ«كتاب المنصور»، وـ«كتاب الجزائر» وـ«حياة كفاح»... إلخ.

إنها فعلاً حياة كفاح نذرها لوطنه علماً وفكراً، كما نذرها جهاداً ومقاومةً إن اندلاع الثورة المباركة، بل وحتى في عهد السيادة نراه قد وهب نفسه لخدمة هذا الوطن، وحينما تقدمت به السن لم يكل ولم يفل بل استقر بــمركز الدراسات التاريخية مدة تسع سنوات إلى أن وافته المنية. فما أحوجنا في زمان الرداءة هذا إلى مثل هؤلاء الرجال.

أخيراً أتعنى أنني وفقت في تقديم هذه الشخصية الشامخة كجزءٍ من بناء مدرسة وطنية جزائرية.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الأستاذ مدغنى بشير

معهد التاريخ - جامعة الجزائر

# المصادر والمراجع المعتمدة :

باللغة العربية

- 1- المنسى توفيق احمد - حياة كفاح - مذكرات الائمة . ( 3- 2- 1 )
- 2- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية السادس الأول لسنة 1985 - رقم 18.
- 3- مجلة الثقافة - وزارة الثقافة عدد 77 - سنة 1983.
- 4- جريدة الشعب اليومية الاربعاء 19 - 10 - 1983.
- 5- جريدة الصباح التونسية الخميس 19 - 10 - 1983.

بالإنجليزية :

1-Journal l' action Tunisienne Journee 18-10-82 Dossier N 1 " HOMMAGE  
A NOTRE PATRIOTE EL MADANI AHMED TEWFIK

## الهوامش :

- 1- عبد الرحمن العி�لالي - مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية - السادس 1985  
رقم 18 - من 24
- 2- أحمد توفيق المنسى - حياة كفاح - مذكرات - الجزء الأول - تونس 1905-1925 من 18 -  
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - بدون تاريخ -  
نفس المصدر 20-21
- نفس المصدر 13
- نوج العدد عمر بوبلار من مجموعة عائلة بن ختمان وكانت من كهفيات العائلات التونسية -  
3- الجزء الأول من 17
- هي مغيرة اليوم تقع بالعاصمة التونسية، يحيوها ويساهمها التونسيون - الجلز - وهي كهفية  
العالية تحدنا بالجزائر، والجلز هو ولد التونسيين يُعرف بـ محمد الجلز وفترة عدد مدخل  
المغيرة
- أحمد توفيق المنسى

- نسر بهذه المعرفة منه مقالات بالجزائر كان آخرها حل العريضة وسبعين المدى  
أ- حياة كفاح ج 1 - ص 81

- لم يتحول إلى الخضا، العسكري تقييمه لوسائله أحد أفراده الذي أرسل مرسولاً من الجزائر  
ل لهذا العرض .

5- حياة كفاح - ج 1 - ص 145 - وهو ما يرجع أن هذا الجزء كتب سنة 1974

- نفس المصدر من 329

- كان أمينها العام .

- شاركه فيها كل من سعي الدين القليبي كائناً، هشمان الكمال كائناً، زعن العالدين السوسي  
أميناً للحال

6- محمد بلقراد - الشيخ أحمد توفيق المدى لمحات من حياته وأعماله - مجلة التاريخ - ص 9

- في غالبية كتابات الشيخ المدى يشير إلى آخرين له " الهادي - حسن "

- عرض مقدم عن فاطمة تازير - غسلة تکور - المركز الوطني للدراسات التاريخية

- مجلة التاريخ ص 7 - 8

7- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية - رقم 18 - السنة 1985 - ص 23 - 26  
- فضل .

8- لا يزال الشيخ عبد الرحمن العجلاني على قيد الحياة، أطال الله في سره وأمده بالصحة  
والعافية

9- هي هي التحقيقة رسالة بعث بها الميل إلى المدى من الأنواع تذكرها الميل في كتاب حياة كفاح  
- الجزء الثاني ص 209- 210.

- مذكرة باللغتين يوم 1948/7/7 ( مجري ) وهي رسالة أولى تتبعها رسائل صدقة من الأنواع  
حيث كان الميل بعده تأليفه لكتابه الشهير " تاريخ الجزائر القديم والحديث "

-- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية 1985 - العدد 18 - ص 27- 28

10- مجلة التاريخ - المركز الوطني للدراسات التاريخية سنة 1985 - العدد 18 ص 41- 48

- تذكر في مقال مطول شئون نفس المجلة تحت عنوان " الولايات الفتحاوية وأهميتها عند الشيخ  
الدرستة التاريخية الجزائرية"

- جريدة البصائر ونادي الترقى.
- محمد عثمان باشا
- كتاب الجزائر الشهير
- لقد بدأ في الكتابة والنضال منذ سنة 1914 وتوفي عام 1983
- 13- كان أيضا رئيس تحرير لجريدة الزهرة سنة 1924-1925
- رافق الشيخ عبد العزيز الثعالبي في حزب الدستور الحر منذ 1920 وكانت له كتابات في هذا المجال والثعالبي جزائري أخذ كان له دور هام في تونس، وله مؤلفات كثيرة أهمها "تونس الشهيدة"
- 14- قال عنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي "... تأليف انفرد فيه وجده بين جميع من سبقه من العلماء، الباحثين حملة القلم العربي موضوع جليل خدم به وطنه بما لم يخدمه أحد غيره" ومن تقدم ...
- مجلة التاريخ -
- حياة كفاح - الجزء الثاني ص 198.
- نفس المصدر ص 199
- نفس المصدر 200 - 201 - 203
- 15- طبع الجزء الأول عام 1976 والثاني عام 1977 والثالث عام 1982
- 16- حياة كفاح "الجزء الثالث."

لیز

و سار برانس

کتابخانه اندیشه دانشگاه

بله استاد اندیشه دانشگاه سار برانس

و سار برانس